تظهر لهجتان: الأولى تعتمد على الأنين ومناجاة الضمير العالمي، من أجل الانصاف والمساعدة على حل القضية؛ والثانية تعتمد على الارغاء والازباد وقذف «العدو» بشواظ الكلام. كثيراً ما كانت تلك الادبيات تحتوي على اللهجتين معاً، اللتين، رغم تناقضهما الظاهري، تنتميان الى أساس انفعالي واحد، معبر عن ذات الواقع السياسي القائم. اللهجتان تعبران عن العجز، وعن التخبط الناجم عن ذلك العجز.

مناجاة الضمير العالمي مقصود بها مناجاة ضمير الدول الرأسمالية الكبرى، التي تؤلف، عموماً، القيادة السياسية العامة للامبريالية، أي للطرف الذي يؤلف العدوان الاسرائيلي جزءاً تنفيذياً من مخططاته. لذلك كان هذا «الضمير»، وما يزال، مرتاحاً لما يحدث، مثلما كان الملك نبوخذ نصَّر مرتاحاً، تماماً، لعملية السبي التاريخية. الضمير العالمي، الممثل بالامم المتحدة، لا أهمية له بالنسبة إلى اسرائيل، لأن «فيتو» الدول الأمبريالية يبطل مفعوله بسهولة. وضمير البلدان الاشتراكية، لا تسمح الأوضاع السياسية والاجتماعية والاقتصادية في البلدان العربية بالتوجه اليه، إلا بمقدار؛ وهذا المقدار هو الذي يعود اليه فضل كبير في الحفاظ على الاستقلال السياسي للعديد من البلدان العربية.

الارغاء والازباد يعبران، بشكل أقوى من مناجاة «الضمير» الأمبريالي، عن حالة العجز التي عاشها الكثير من العرب.

عندما انتقل الرد العربي من حيز العجز الى حيز الفعل، وذلك بأمرين: الأول التوجه، جزئياً، الى البلدان الاشتراكية، من أجل السلاح؛ والثاني تشكيل منظمة التحرير الفلسطينية؛ بقيت ثمة نقاط ضعف كثيرة، قيل فيها الكثير، ونحن لا نريد، هنا، تكرار مثل ذلك، وانما نود الاشارة الى بعض الجوانب الاساسية، التي ربما يُنظر اليها حتى الآن بشكل آخر.

لقد جابه الرد العربي، بمختلف اجتهاداته، الطرح الصهيوني باعادة الوضع الذي نشأ عن الدياسبورا اليهودية الى نصابه، بطرح نقيض يتضمن اعادة الوضع الذي نشأ عن التشتت الفلسطيني، أو العربي ـ الفلسطيني، الى نصابه. هذا الطرح النقيض هو صحيح منطقياً، وهو، اكثر من ذلك، مبني على التسلسل الواقعي للأحداث المؤلمة، منذ بداية القرن حتى الآن، ويختلف، جذرياً، عن الطرح الصهيوني المبني على الخرافة.

لكن يختلف الطرح الصهيوني عن نقيضه العربي بأمر أساسي، هو أن الامبريالية تتبنى الطرح الصهيوني، وتعتبره جزءاً من مخططاتها، بينما تحارب، بكل شراسة، وبكل الوسائل، الطرح العربي.

اذن، يقع الصراع العربي، تاريخياً، في اطار الصراع مع الامبريالية. وعدم فهم هذه الحقيقة هو الذي يتسبب بالانزلاق في مختلف التخبطات، وبالتعرض، دوماً، للمزيد من الكوارث.

وليس المقصود، هنا، الفهم الصوري للحقيقة المذكورة. لأن هذا حاصل، ومنتشر لدى أغلب الوطنيين المهتمين بالقضية الفلسطينية. انما المقصود، ان الانطلاق من مبدأ الصراع مع الأمبريالية يتطلب موقفاً شمولياً متعلقاً بالموضوع.

الواقع أن الصراع من الامبريالية ليس وظيفة الفلسطينيين، أو العرب، وحدهم، ولا يكفي لا اولئك ولا هؤلاء لمجابهتها بقواها المادية والمعنوية. الصراع مع الامبريالية هو عملية تاريخية تشارك فيها جميع الشعوب، بما في ذلك اليهود. هذا المنظور يحدد، بسهولة، التحالفات؛ كما